صندوق البريد

قضية باسترناك

اني اتفق مع الاستاذ رئيف خوري (١) على ان منح جائزة نوبل لباسترناك كان لونا من الوان الدعاوة السياسية او هو جزء من الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي على الصعيد الادبي ...

ولكن هذا الجانب من القضية ليس بالمهم وليس هو الذي يوضح ما تثيره من امور هامة تتعلق بالنظرة الى العلاقة بين الفرد والمجتمع ... تلك المشكلة الابدية التي هي محور الاختلاف بين كل النظم السياسية والاجتماعية ، والدليل على ذلك ان الاتهامات التي يتبادلها المعسكران تعود ـ بعد مقارنتها ـ لتشكل اتهامات مشتركة على كلا المعسكرين !.. ولنأخذ قضيتين لعملية المقارنة هذه ، قضية باسترناك ـ الاديب الروسي ـ وقضية هوارد فاست التي اثيرت منذ سنتين حين منح جائزة ستالين !.

فالدعاية التي تثيرها الولايات المتحدة وتتهم فيها الاتحاد السوفياتي بانه يمنع حرية التفكير والحريات الفردية بضغطه على الكاتب الروسي ومنعه من قبول جائزة نوبل (بدليل انه رجع «فاعتذر» عن قبولها بعد ان وافق قبلا) ان هذا الاتهام يرجع ليصيب في القضية الثانية الولايات المتحدة ذاتها صاحبة الاتهام حين اتهمت الكاتب الاميركي فاست بمناهضة النظام القائم يوم منح جائزة ستالين !..

كذلك فالاتحاد السوفياتي ذاته الذي يردد بان الغرب استغل جائزة ادبية للدعاوة السياسية هو نفسه الذي منح جائزة ستالين لهاورد فاست ثم هو نفسه الذي هاجم الكاتب هجوما قاسيا عنيفا ردده كل الكتاب الشيوعيين بعد ان ارتد فاست عن يساريته ايام حوادث المجر المشهورة .

والنتيجة ان الاتهامين يشترك فيهما كلا المعسكرين !..

والذي يعنيني من هذه النتيجة كونها ظاهرة فكرية تعبر عن الازمة الحادة المشتركة التي يعانيها كلا النظامين رغم تناقضهما الهائل ...

ما هي هذه الظاهرة ؟ وما دليل هذه الازمة ؟

العلاقة بين الفرد والمجتمع واسبقية الواحد منهما على الاخر ، مشكلة حاولت معظم الانظمة السياسية والاجتماعية حلها ، والمعروف ان النظامين الشيوعي والرأسمالي حاولا حل المشكلة على طرفي نقيض ، فكان المجتمع هو الطرف الغالب في النظام الشيوعي وكان الفرد هو الوسيلة والغاية في النظام الرأسمالي وليس هنا مجال تفصيل فلسفة كل منهما .. ومع ذهاب كل منهما الى نقيض الاخر فلقد دلت التجربة العملية في كلا المجتمعين اللذين يطبق فيهما النظامان بان هناك صفة مشتركة بينهما تعطي الدليل العملي على فشلهما الذريع في حل المشكلة .... هذه الصفة المشتركة هي ما يسمى « بالطابعية » في المجتمع (الكونفورميزم) .. والطابعية تعني طبع الناس بطابع واحد مما يقضي على الاصالة الفردية وحرية الراي والفكر ومنع اي فرد ان يعبر عما يريده بواسطة ضغط السلطة والدولة وبما تضعه من قوانين واجهزة تجعل فرص التعبير عن الرأي غير متوفرة ولامتاحة للفرد ...

نفي المجتمع الرأسمالي مثل مجتمع الولايات المتحدة رغم اخذه فلسفيا للجانب المتطرف من حرية الفرد فالتطبيق جعل هذه الحرية الفردية ليست الا حرية الاحتكاريين الراسماليين ، حرية الاستغلال وحرية استعمار الشعوب .. واصبح المجال الوحيد للتعبير عن الراي هو مجال دعم الاحتكارية وما ينبع منها من نظريات وسياسات تؤدي لفائدتها وقوتها ..

وكل من يخرج عن هذا المجال الوحيد المفتوح يقضي عليه بكل الطرق وعلى الاسلوب المكارثي ..

اما في المجتمعات الشيوعية فلقد اصبح المجتمع الشيوعي سجنا كبيرا للفرد ليس له فيه الا حق الموافقة الدائمة المستمرة ، وقتل هذا السجن ـ بماله من قوى اجتماعية عائلة تملكها الدولة ـ امكانية التفكير الذاتي الصادق عند الفرد .. وحتى اذا ما حاول الفرد ان يقفز عن هذه العقبات والقوى ـ كما حاول باسترناك ـ فمصيره احكام كالتي اصدرها اتحاد الكتاب السوفياتيين على باسترناك اخفها الخيانة والانانية . وبودي هنا ان اقتطف فقرة من الحكم الذي اصدره الاتحاد على باسترناك : « ... ونظرا لتدهور باسترناك السياسي والاخلاقي ولخيانته الشعب السوفياتي وقضية الاشتراكية والسلام واستهدافه خدمة الحرب الباردة مما ادى الى منحه جائزة نوبل فان مجلس اتحاد الكتاب السوفيات لا يعتبره منذ الان كاتبا سوفياتيا ويفصله من اتحاد الكتاب السوفياتيين » .

وليس اتحاد الكتاب السوفييت شيئا منفصلا عن الدولة او النظام المطبق كما حاول الاستاذ رئيف ان يظهره ، فكلنا يعرف انه ليس الا احد اجهزتها فليس هو اذن الذي استدعى الدولة على باسترناك ... فحكمه هو حكم الدولة وحكم الحزب الشيوعي السوفياتي ـ وهنا اختلف مع الاستاذ خوري حين حاول ان يفرق بين الدولة واتحاد الكتاب ليطلع بنتيجة بان الدولة تسمح بحرية التفكير ..

لقد حكم التطبيق اذن في كلا النظامين على كونهما وصلا في مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع الى نتيجة واحدة وهي عدم تمتع الفرد فيهما بحرية التفكير وان المجتمع عندهما يتصف بالطابعية المتسمة بالقضاء على كل تعبير صادق عند الفرد .. وهذه هي احدى الازمات الهامة التي يعانيها النظامان على الصعيد التطبيقي ... ما هي حدود العلاقة بين الفرد والمجتمع الى نتيجة واحدة وهي عدم تمتع الفرد افراد المجتمع بحرية التفكير وما هي حدود هذه الحرية ؟ ... ابحاث دقيقة وهامة تتطلب مجالا غير مجال هذا الموضوع ولعلها تكون في رايي احدى المشاكل الكبرى التي تجابه فكرنا القومي الحديث ...

ولا بد من عودة لباسترناك ، لقد حاول الاستاذ خوري ان يظهر الاتحاد السوفياتي بانه يتمتع بحرية التفكير ، وبودي هنا ان اناقش موضوعيا وعلى ضوء (النتيجة) التي وصلت اليها هذا الحكم ... ان باسترناك اديب ـ مهما اختلفنا في الحكم على القيم الجمالية لفنه ـ ويحق له كما يحق لاي انسان ان يفكر كما يشاء وان يختار المنهج الفكري الذي يرضاه .. واظن ان الاستاذ خوري يوافقني على ان باسترناك ليس مدفوعا من قبل الغرب في انتاجه الادبي رغم ان الغرب استغل انتاجه ومنهجه الفكري لدعاوته السياسية ولكن المسؤولية لا تقع على باسترناك كما سابين فيما بعد .. ويتلخص منهج باسترناك الفكري (وبرأيي ان من اهم اسباب تطرفه في اعتناق هذا المنهج ازمة الحرية التي يعانيها المجتمع السوفياتي) في عتاقه وايمانه بالقوة الالهية كمسيرة للتاريخ وبان الثورة ليست ضرورية وان الانسان يجب ان يعيش للحظة الحاضرة لا ليفني عمره في التحضير للحياة ... وهذا المنهج هو نفس منهج كامو ولعل هنا يتضح اعجاب كامو بباسترناك وتفضيله اياه على كل الكتاب الروس ... وهذه الفقرة من رواية الدكتور زيفاجو تلخص كل منهجه الفكري بهذه الكلمات :

ان هذا النظام يناصبنا العداء .. وفلسفته غريبة علي .. فان احدا لم يأخذ رايي فيما اذا كنت موافقا على هذه التحولات .. الماركسية علم ؟ ان العلم شيء اكثر اتساقا ... اتتكلمون عن الماركسية الموضوعية ؟

(١) : « في قضية الدكتور جيفاكو » في العدد الاخير من الاداب

انا لا اعلم مذهبا اكثر ذاتية وابتعادا عن الواقع من الماركسية ... لماذا كل هذه التحضيرات من اجل حياة المستقبل ؟ ... لقد خلق الانسان ليعيش لا ليفنى عمره في التحضير للحياة .. »

لا شك ان هذا المنهج الفكري يناقض المنهج الماركسي ، ولكن هل فرض على كل فرد يولد في الاتحاد السوفياتي ان يكون ماركسيا ، هل من الخيانة والاجرام ان يؤمن روسي بغير ما أتى به ماركس ؟؟ .

من هنا تنبع الازمة ... صحيح ان الدولة شيوعية وان الحزب الحاكم يؤمن بمنهج ماركس ... ولكن هذا لا يمنع ابدا اي فرد حر في اختيار منهجه الفكري شرط ان يكون صادقا صدقا ذاتيا في اختياره وان يعبر عن اختياره بكل وسائل التعبير عن الراي ..

ولا بد هنا من توضيح الفرق بين الاختيار الصادق للمنهج الفكري ونوع اخر نستطيع ان نسميه بالمؤامرة الفكرية المدفوعة من الخارج .. ان الاختيار الصادق ينبع من ذات الفرد .. من عملية التفكير الذاتي حيث يتوصل الفرد الى منهجه دون اعتبار لاي عامل خارجي يدفع به الى هذا المنهج بوسائل غير فكرية ... اما المؤامرة الفكرية المدفوعة من الخارج فهي عملية مخططة مدروسة من الخارج القصد منها بلبلة المجتمع والنيل منه وتحويل ارائه بالضغط الى اراء لا تنبع من ارادته ، ومثال هذه العملية ما نشاهده من نشاط مؤسسة « فرانكلين » الاميركية التي «جندت » مجموعة كبيرة من المفكرين والادباء لنشاطها قصد محاربة عقيدتنا القومية العربية وتشكيك العرب بها وتحويلهم عن منهجهم الذي اختطوه لانفسهم تجاه كثير من القضايا ، فهؤلاء « المجندون » لمؤسسة « فرانكلين » لم يختاروا بصدق منهجا فكريا ... انما هم متآمرون ـ الى حد الخيانة ـ على ثقافتنا القومية وسيرنا التحرري الصاعد .. ففي النوع الاول على المجتمع واجب افساح المجال للتعبير عن الرأي ويترك للصراع الفكري الموضوعي اصلحية اية فكرة او منهج للبقاء ... اما في النوع الثاني فطبيعي ان حماية المجتمع منه واجب قومي وخاصة في فترات الانتقال .

والان اين يقف باسترناك ؟.. لاشك ـ وكل الدلائل تشير ـ الى ان اختياره كان صادقا وليس مدفوعا من الخارج ، فمن حقه اذن ان يعبر عن رايه وان ينشر هذا الراي ... فماذا حصل ؟ ... لم يسمح له اتحاد الكتاب السوفييت بنشر روايته ، والنشر هناك منوط فقط بالاتحاد ، ولم يكن عدم السماح بسبب ضعف الناحية الفنية في الرواية وانما في المنهج الفكري كما اشار الى ذلك الاتحاد في رسالته الى باسترناك حين قدم له الرواية ، وتقول الرسالة : « انيك رأينا في اصول روايتك وما اثارته فينا من قلق وحيرة والامر لا يقف عند اختلافنا في تذوق القيم الجمالية او تقدير الكفاءة الفنية فهو يتعدى ذلك الى الاتجاه العام للرواية ، الى منهجك الفكري باكمله » ..

هل هي مسؤولية باسترناك بعدئذ اذا حصل على الرواية ناشر ايطالي (وهو شيوعي ايضا) لينشرها في الغرب ويستغلها الغرب في دعاوته السياسية ذلك الاستغلال الذي انتهى بمنح باسترناك لجائزة نوبل ؟ .. .

ان قضية باسترناك اعمق من ان تؤخذ من ناحية ارتباطها بالحرب الباردة والدعاوة السياسية بين المعسكرين ... انها قضية فكرية بالدرجة الاولى .

محمد كشلي

جامعة القاهرة

رئيف خوري وحرية الفكر

الاستاذ رئيف خوري من المعروفين بحبه وسعادته بتجربة الاتحاد السوفياتي الاشتراكية (الكبرى) وهو على ذلك مضطر للدفاع عن تصرفات هذه الاشتراكية بحكم حبه لها ، ونحن هنا لا نلومه في هذا فللناس فيما يعشقون مذاهب ، ولكنا نحاول ان نعطي رأينا فيما جاء به الاستاذ خوري حول قصة بورس باسترناك الذي شغلت قصته الدكتور زيفاغو الحقلين السياسي والادبي العالميين شهورا ولا تزال ، فمما لا شك فيه ان قول السيدة اللبنانية في ان الدكتور زيفاغو قد رحل الى بيروت وافتتح له عيادة فيها تخلصا من ظلم حكام الكرملين لا اساس له من الصحة وانه لا يمثل الا رأي السيدة نفسها ، وليس من الوارد الصحيح ان يتخذ الاستاذ خوري ذلك دليلا على شيء ما . اما مسألة استعمال قصة باسترناك ككماشة غربية لاظهار الاتحاد السوفياتي بمظهر ما ... مظهر يريده الغرب له متخذا ، ما كتبه باسترناك دليلا على ذلك فهو صحيح ونحن نوافق الاستاذ خوري على ذلك .. اما حكاية الحرية والديموقراطية التي يحاول الاستاذ رئيف ان يثبت لنا انها موجودة في الاتحاد السوفياتي بفضل ثورته الاكتوبرية ـ فهذه مسألة فيها نظر بالنسبة لنا نحن الكتاب العرب لان ظروف نشر قصة باسترناك قد جعلت حكام الكرملين يتخذون هذا الموقف المتراخي بالنسبة لباسترناك الذي قال الحق ولا شيء الا الحق بالنسبة له .

فالشيء الصحيح ان سكان روسيا قبل ثورة اكتوبر كانوا يرحبون باية حركة تخلصهم من ظلم القيصرية واقطاعها المخيف وستبدادها المقيت وقد ساندوا ثورة الدوما على هذا الاساس ، وعندما قام لنين بثورته بمساعدة الدول الغربية العدوة للقيصرية رحب بها الشعب مبدئيا ولكنا لا نستطيع القول انه لا زال كذلك .. صحيح ان مستواه المعاشي قد ارتفع وانه قد بدأ يسمن ويأكل الشحم واللحم ولكن الحرية التي ارادها زمن القيصرية وسعى اليها .. لازالت بعيدة عنه وهو في عصر خروشوف، وما فضيحة ستالين وحكمه الاستبدادي ورائحتها التي تزكم الانوف الناتقة الى الحرية ببعيدة عنا .

يحاول الاستاذ خوري ان يثبت لنا بان موقف حكام الكرملين تجاه باسترناك بعد منحه جائزة نوبل (التي لم يمنحها الغرب الا لغرض في نفسه) كان صحيحا وانه دليل على وجود الحرية الادبية في الاتحاد السوفياتي بحيث ان حكام الكرملين لم ينصتوا الى الاصوات الصادرة من اتحاد الادباء هناك التي طالبت باخراج باسترناك من روسيا واسقاط الجنسية عنه ، فمن المعروف ان الاضواء العالمية (المحايدة والمغرضة والدائرة في الفلك البلشفي) قد سلطت على باسترناك وقضيته ومن المعروف كذلك ان خروشوف قد وقع في الفخ فارسل برقيته المشهورة الى باسترناك طالبا منه ايضاح موقفه بالنسبة لهذه الضجة التي افتعلها الغرب تجاه قصته ومن المعروف كذلك ان باسترناك قد ارسل رده الى حاكم الكرملين مؤكدا ـ ولم نكن معه في صحة ذلك ام لا ـ اخلاصه للثورة البلشفية العظمى و ... وقد اكتفى خروشوف بهذا من باسترناك ولم يستطع ان يتخذ منه موقفا تعسفيا لان العالم كله كان يرقب ـ ولا يزال ـ رد الفعل الرسمي الذي سيتخذ بالنسبة لباسترناك وان خروشوف قد حاول ان يقيم الدليل على وجود الديموقراطية والحرية في بلاده ، ونظنه قد نجح في ذلك لانه او كان الامر هكذا لنشرت القصة اولا في روسيا قبل ان تهرب الى ايطاليا ، فان الشيء الذي حدث ان باسترناك قد كتب قصته وارسلها الى مجلة (العالم الجديد) السوفييتية التي ردته ردا عنيفا ورفضت نشر قصته ، وكانت القصة قد وصلت ايطاليا انذاك فترجمت الى الايطالية ونشرت بعد ذلك بمختلف اللغات الاوروبية ثم استغلتها الدعاية الغربية واعلنت مؤلفها فائزا بجائزة نوبل فهل ترى الاستاذ رئيف خوري قد اقتنع بصحة ما اقول من ان الشيوعية بعيدة كل البعد عن الديموقراطية بل انها تحاربها كحربها لاية حركة قومية ؟ والدليل على ذلك قائم في كل مكان يرفض ان يكون سائرا في الفلك الغربي او الفلك الشرقي ؟.

بغداد **باسم عبد الحميد حمودي**